حياة بديلة

قبل سنوات حصلت على عمل كمترجم في شركة النفط الوطنية الإسبانية. كان عقداً وقتياً يعتمد اعتمادا كلياً على حجم الوفود العربية التي لبلدانها علاقة بالشركة. آنذاك اقتحم الأمريكان بغداد ومضت سنة على تشكيل أول حكومة عراقية، وكان أن سارعت الشركات العالمية لمد يد التعاون مع الحكومة لغرض كسب عقود مستقبلية، ومنها بالطبع إسبانيا. من هنا جاء اتصال الشركة الإسبانية بي، فالنية أن أعمل عندهم مترجماً مرافقاً للوفد العراقي الذي سيصل مدينة برشلونة في الأيام القادمة. أخبرتني سكرتيرة الشركة (من صوتها خمنت أنها شابة، وهذا ما لمسته بعيني بعد ذلك) بأن العقد قد يطول تبعاً لحجم وعدد الوفود القادمة، وأضافت أن علي التواجد في مدينة برشلونة لخمسة أيام في الأسبوع.

كنت أعيش في مدريد، المدينة التي لم أغادرها إلا لأوقات قليلة، من هنا جاء العمل في برشلونة بمثابة اختبار لي، هل أستطيع مغادرة مدينة عشت فيها لأكثر من عشرين عاماً؟ وجدت نفسي في مواجهة معضلة لا فرار منها، وهو القبول فوراً ودون مماطلة، إذ كنت عاطلاً عن العمل وفي حاجة لتمرير أيامي المدريدية بدخل معيشي جديد لطالما فرص العمل في العاصمة أصبحت صعبة يوماً بعد آخر. فكرت أن عملاً مثل هذا سيقيني محنة التشرد والحاجة لأشهر قادمة إذا ما وفرت من رواتب إقامتي وعملي في برشلونة كمترجم لوفد عراقي لا أعرف عنه أي شيء ولم أسع لمعرفة أي شيء عنه طوال تواجدي معهم.

الحقيقة أنني كنت سعيداً طوال إقامتي في برشلونة، لم يكن العمل صعباً بالمرة، كما أنني لم أمارس الترجمة إلا في مواقف معدودة، لإن أغلب الحوارات كانت تتم بينهم بالإنكليزية، مما حصر دوري على مرافقتهم هنا وهناك وأن أكون دليلاً لهم في المدينة فيما لو احتاجوا لشيء ما. مرات عديدة تساءلت عن جدوى وجودي معهم لطالما حاجتهم لي كمترجم ضئيلة جداً؟ كانت الوفود تمضي يومها في دورات تدريبية طوال اليوم تقريباً، مما أتاح لي فرصة التعرف على مدينتي الجديدة وقضاء الوقت في التسلية والتفرج والتمتع بمناظرها حتى إن منْ كان يراني آنذاك كان سيحسبني واحداً من سياح المدينة. دفتر صغير وكتاب وكاميرا تصوير ترافقني في تجوالي، وكنت لا أفكر بالوفد ولا التزاماتي حتى ساعة العودة بهم للفندق على ان يرتاحوا لنعاود الكرة لليوم التالي.

ما كان يقض مضجعي هو التنقل ما بين مدريد وبرشلونة، فالعقد يتطلب مني التواجد لخمسة أيام واستراحة يومين في نهاية الأسبوع أمضيها في شقتي في مدريد. مع مرور الوقت تكاسلت في صعود القطار أو الطائرة من برشلونة إلى مدريد والعودة به، وفكرت أن أستأجر غرفة في بيت مشترك أمضي فيه كل أيامي في برشلونة حتى ينتهي عقدي مع شركة النفط الوطنية. كنت قد أبديت رغبتي هذه لسكرتيرة الشركة على أن تساعدني في إيجاد غرفة سكنية لي، ولكن (لنمنحها هنا إسماً وهمياً هو آماليا) أخبرتني أنه لا داع لذلك ويمكنني أن أتقاسم العيش معها في شقتها. نسيت أن أقول إنني بمرور الأيام في برشلونة، كنت أمضي وقتاً طويلاً برفقة آماليا سواء في الشركة نفسها أو خارجها، وبالتتابع توطدت علاقتنا وشعرنا بانجذاب الواحد للآخر، حتى أننا شعرنا وكأننا زوجان أمضيا العمر كله في بيت واحد. كانت من النوع اللطيف، قليلة الكلام وعملية في شؤون الشغل وفي الحياة نفسها، لذا لم يمر وقت طويل حتى عرف الجميع بعلاقتنا. أيام العمل كلها كنت أعيش معها في شقتها ماعدا نهاية الأسبوع الذي أمضيه في مدريد، من هنا جاء

ردها بأنني يمكنني الإقامة معها بشكل دائم ولا داعي للتنقل ما بين مدريد وبرشلونة. لم يكن بي حاجة لغرفة لي لوحدي، لذا وافقت على نقل أغراضي القليلة ومشاركتها غرفتها التي ستصبح بمرور الوقت غرفتنا المشتركة.

بعد أشهر من عملي برفقة الوفود العراقية، شكلتُ لي ما يشبه حياة مستقرة نوعاً ما، وقطعت الصلة بمدريد جذرياً، خاصة بعد أن تلقيت إخطاراً من مالك شقتي في مدريد يخبرني بأنه قد رمى بأغراضي خارج البيت وأجر الشقة لشخص آخر بعد شهرين من اختفائي وعدم تسديد الدين الذي بذمتي. لم أندم للحظة على ذلك، كما أن أغراض شقتي المدريدية لم تكن بالأهمية الخاصة، مجرد أدوات منزلية رخيصة وعدة طبخ ولوحات مزيفة كنت قد زينت بها الجدران وبضعة كتب لا أذكر من عناوينها شيئاً، كلها يمكنني الاستغناء عنها دون أن يرمش لي جفن. شعرت بالارتياح حقيقة، وبدأت أستمتع بحياتي البديلة في برشلونة والتي راحت تتجذر وتبني لها علاقات ومعارف وأماكن مألوفة. كنت في تواجدي الطويل في برشلونة قد صنعت لي عالماً آخر، تعرفت على المدينة حتى حفظت طرقها وشوارعها وناسها وشرعت بتعلم لغتها الثانية الكتالانية وأصبحت مشجعاً شرساً أحرص على حضور كل مباريات نادي برشلونة. لم أكن أشعر بغربتي فيها أو على الأقل كان إحساسي هذا هو المسيطر خلال إقامتي التي بدأت تقترب من إتمام عامها الأول. الأهم في كل هذا أنني كنت متأكداً تماماً بأن برشلونة ستكون مدينتي إقامتي الأبدية، حتى أننا فكرنا (آماليا وأنا) بشراء شقة صغيرة وإنجاب طفل في السنة القادمة.

بعد مرور عام على إقامتي في برشلونة حصلت على إجازة لأسبوع وأخبرت آماليا أن علي السفر لمدريد لإنهاء بعض الأوراق المتعلقة، وكان القرار أن أمضي ثلاثة أيام لأعود بعدها كي نتزوج ونسافر إلى مدينة ساحلية للاسترخاء. في اليوم التالي حملت حقيبتي الصغيرة ومضيت حتى المطار كي أستقل الطائرة الذي

ستحملني في ظرف ساعة واحدة حتى العاصمة مدريد. هناك أمضيت اليومين الأولين في الركض وراء تجديد مستمسكاتي القانونية والوقت المتبقي قبل عودتي مررت فيه للسلام على بعض المعارف في المدينة كما أكلت في مطعم في حي المهاجرين أكلة عربية دسمة لم أتذوق مثلها منذ زمن. لم اكترث بالمرة بالتجوال في المدينة التي عشت فيها أغلب سنوات حياتي، لم ينهشني الفضول ولا الرغبة بمطالعة ما تركت منذ سنة. في صباح اليوم الثالث كنت من جديد في صالة المطار، وصلت قبل ساعتين من موعد الإقلاع، فكان أن شحنت حقيبتي وجلست أنتظر مرور الوقت حتى النداء الأخير.

هل هناك ما يمكن أن نسميه وخزة في القلب لتنتقل بشكل سريع حتى الرأس في ظرف دقائق؟ هل هناك هزة ولو خفية تنقلك من شخص ينتظر إقلاع طائرته إلى شخص لا يهتم بأي نداء؟ لا أعرف... ما أعرفه أنني قد بقيت واجماً، راكزاً كصخرة في مقعدي في صالة الانتظار لا أمل لي في كل هذه المتاهة المطارية غير التمعن بالوجوه القادمة والمغادرة والتي يمتلئ بها المطار. كنت شديد الانتباه لكل حركة وصوت يبدر في المطار إلا صوتي الداخلي وحركتي الجافلة، فقد كانا في عالمهما الذي لا أميز فيه مخرجاً ولا تعبيراً معيناً يدلني عما جرى لي. لم أتحرك رغم النداء الأخير لطائرتي ولم أفكر بشيء. أغمضت عيني ورحت أدندن بكلمات أغنية قديمة، لا أتذكر متى سمعتها، غير أنها نبضت في رأسي بشكل مباغت وراحت تملي عليّ كلماتها:" إيه أيها الغريب، أيها الغريب، أيها الغريب، لن تجد راحة لقدميك... إيه أيها الغريب!".

بعد أن عجزوا عن إيجادي والنداءات الأخيرة بإسمي ماتزال تطن في أذني بعد ورأيت بوضوح أن طائرتي قد غادرت المطار، نهضت من مقعدي وخرجت حتى أقرب محطة واستقليت تاكسياً أشرت عليه أن ينقلني إلى فندق بسيط وسط المدينة. لم يكن لي بيت أعود له في هذه المدينة التي تركتها منذ عام والتي أرقبها

من جديد كغريب يدخل أزقتها بحذر، لذا فكرت أن أنام اليوم في فندق على أن أفكر فيما بعد بما عليّ أن أقوم به. ما أن وصلت الفندق وقد كان الوقت ظهراً حتى نمت بعمق في السرير دون أن أفكر بساعة معينة للاستيقاظ.

استيقظت فجراً ولا رغبة لي للعودة إلى السرير. تفحصت بنطلوني الملقى على كرسي في الغرفة وعثرت على سكائري، حملتها مع هاتفي النقال حتى شرفة الغرفة وجلست فيها على كرسي قديم من الخشب ورحت أدخن مراقباً الساحة المقابلة. كان هناك حشد من الشباب اللاتينيين يدخنون الماريجوانا ويتصارخون فيما بينهم، بينما راحت شابة منفوشة الشعر في نوم عميق على سرير من الكارتون عند زاوية ترابية في الساحة نفسها. تنبهت لهاتفي ولمحت أكثر من عشر مكالمات ضائعة، كما هناك إشارة لرسالة مكتوبة وأخرى صوتية. كل المكالمات كانت من رقم واحد، عرفته للتو، رقم هاتف آماليا التي كانت تنتظر عودتي على طائرة الصباح. لم أحفل بمعرفة فحوى الرسالتين. تركت الهاتف جانباً ورحت أدخن متأملاً مصباح ضوء الشارع الذي يسلط أنواره على رأسي تماماً.

للحظة ما التفت إلى حيث تركت الهاتف، فتحته، أخرجت بطاقته ورميت بها حتى الفراغ الذي حملها إلى ساحة الشباب اللاتينيين. لم ينتبه لها أحد بينما كنت أتابع تحليقها وسقوطها لتندثر مع التراب. راقبت الهاتف قليلاً، ثم حملته ورميت به هو الآخر، هناك سمعت صوت ارتطامه على الإسفلت. شعرت بارتياح تام، وكأنني تخلصت للتو من تركة ثقيلة تخنقني بتكورها. قلت لنفسي "الآن أفضل من أي يوم" ولم أفهم حقيقة معنى ما أقول وكأن الجملة ليست لي وإنما ندت عن شخص آخر بجواري.

لم أهتم لكل ذلك. دخنت سيكاراً آخر وتمددت في كرسي الشرفة متمعناً السماء الصافية. قبل أن أغفو للمرة الأخيرة، شعرت بأحدهم يرمي حجراً من الأسفل ليرتطم بشرفتي. لم أعر للأمر اهتماما، بعد لحظات عاودوا الكرة فأصاب

الحجر المصباح ليحطمه ويتركني في ظلمة دامسة ممدداً بلا حراك، في كرسي خشب قديم في فندق لا أذكر منه حتى أسمه.